المقاييس البديعية والبيانية
بين
أبي القاسم الآمدي والقاضي الجرجاني

د. محمد الأمير محمد السيد
كلية الدراسات الاسلامية
والعربية للبنات في سوهاج

التعـريف بالعالمين الكبيرين :

الآمـدى : هـو أبو القاسـم الحسـن بن بشـر بن يحـيى الآمـدى الأصـل ، البصرى المولـد ، والنشـأة • أخـذ النحـو واللغـة عن الأخفش ، والزجـاج ، وابن السراج ، وابن دريـد ، ونفطـويه وغيرهـم • وكـان حسن الفهـم ، جيـد الدراية والفهم• اشتغل كاتبـا فى بغـداد لأبى جعفـر هـارون بن محمد الضبى ، وفى البصـرة لأبى الحسـن أحمـد بن الحسن ، ولأخيـه أبى أحمـد طلحـة بن الحسـن ، ثـم من بعدهمـا للقـاضى أبى جعفـر بن عبد الواحـد الهاشمى على الوقـوف التى تليهـا القضـاء ، ومن بعـده لأخيـه القـاضى أبى الحسـن محمـد بن عبد الواحـد •

ولـه تصانيف كثـيرة فقـدت ذكرهـا فى كتـابه الموازنة الذى طبـع عـدة طبعات ، وتوفى سـنة ٣٧١ هـ •

والقـاضى الجرجانى هـو أبو الحسـن على بن عبد العـزيز ابن الحسـن بن اسماعيل الجرجانى ، ولـد فى جرجان سنة ٢٩٠ هـ ، وبعـد أن شـب تنقـل فى حواضر الدولة الاسلامية ، فزار العراق ، والشـام ، والحجـاز ، ولقى مشـايخ وعلمـاء عصـره ، واقتبس العـلوم والآداب ، وصـار فيهمـا علمـا واماما •

اشـتهر بالفقـه ، وترجـم لـه الشيرازى فى طبقـات الفقهاء ، والسيوطى فى طبقـات المفسرين • وهـو شـاعر متقـن ، وكـاتب مترسـل ، وناقـد بصـير •

ولاه الصاحب بن عباد قضاء الري لما له من فضل في الفقه ، ومات سنة ٣٩٢ هـ ودفن بجرجان ، ومن أهم آثاره كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه .

ازدهار الأدب في القرن الرابع الهجري

بلغ الشعر العربي أوجه في القرن الرابع الهجري ، كما بلغ النقد ذروته ، اذ تجمعت الآراء ، وتبلورت النظريات ، وتحددت العناصر الفنية ، واصبحت الدراسات حول الشعر تقوم على أصول محدودة ، وأسس ثابتة ، وظهرت فيه الشروح الكبرى ، وألفت فيه كتب تختلف عن سابقتها عرضا وهدفا ككتاب الموازنة للأمدي ، وكتاب الوساطة للقاضي الجرجاني .

وكان من مظاهر الدراسات الشعرية في هذا القرن الاهتمام ببعض الفنون البلاغية ، كالتشبيه والاستعارة ، وبعض الألوان البديعية التي فاض بها شعر المحدثين ، اذ رأى الشعراء المحدثون أن القدماء قد أتوا على كل مناحي القول من معاني المديح والفخر والوصف والرثاء والهجاء ، وغير ذلك بعبارات جزلة ، وأساليب محكمة رصينة ، وتصوير بيان واضح ، يشف عن صدق الاحساس ، وصفاء الشعور ، فأراد الشعراء المحدثون التجديد حتى يظهر تفوقهم ، ويبين سبقهم ، فلجأوا الى الصياغة اللفظية ، فجاء شعر بعضهم موشى بالبيان ، مزخرفا بألوان البديع ، متأثرين بما جد في عصرهم من بسط في الترف والعلم ، وتنوع في الثقافة والفن .

وكلما تقدم الزمن بالمحدثين ، وجاءت منهم طائفة أربت على سابقتها فى التوشية ، والمبالغة ، وتوليد المعانى ، فخرج شعر بعضهم عن الطابع المألوف ، وظهر فيه التكلف والتعمل ، بما أقحم فيه من ألوان البديع ، والفلسفة ، والعلوم المختلفة حتى صار الشعر عند بعضهم فنا وصنعة ، تكسوها الكلفة ، وينتظمها التعقيد والغموض ، ومن ثم ظهر ما سمى بمذهب البديع(١) ، فصار الهدف من الشعر مجرد أقوال ، وعبارات موشاة ، والجرى وراء الزخرف ، والتنميق ، وايثار ذلك على جودة المعنى مما أدى الى التعسف ، والتقصير والتناقض ، والاحالة ، وقد كان الهدف عند القدماء تصوير الحياة بكلام يسيل عن فيض السليقة ، يحمل معانى تمليها عليهم حياتهم ، وما فيها من صور ومشاهد ، وأعراف وعادات بأسلوب واضح ، وان جاءت فيه ألوان بيانية ، أو بديعية تأتى عفو الخاطر ، يقودها المعنى ، ويدفعها الشعور . قال ابن رشيق(٢) : « انما مثل القدماء والمحدثين كمثل رجلين : ابتدأ هذا بناء ، فأحكمه وأتقنه ، ثم أتى الآخر فنقشه وزينه ، فالكلفة ظاهرة على هذا وان حسن ، والقدرة ظاهرة على ذلك وان خشن » . وقال القاضى الجرجانى(٣) : « وكانت العرب انما تفاضل بين

---

(١) ذكرت نبذة عن ظهور مذهب البديع ، ودواعى ظهوره فى بحثى « البديع بين ابى تمام والبحترى » المنشور فى مجلة كلية الدراسات الاسلامية والعربية للبنات بسوهاج . العدد السادس لعام ١٩٩٠ م فلينظر هناك .

(٢) العمدة ج ١ ص٧٤ .

(٣) الوساطة ص٣٣ — ٣٤ .

الشعراء فى الجـودة والحسـن بشرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، وتسـلم السبق فيـه لمـن وصـف فأصاب ، وشـبه فقـارب ، وبـده فأغـزر ، ولمـن كثرت سـوائر أمثاله ، وشـوارد أبيـاته ، ولـم تكن تعبـأ بالتجنيس والمطابقة ، ولا تحفـل بالابداع والاستعارة اذا حصـل لهـا عمود الشعر ، ونظـام القريض • وقـد كـان يقـع ذلك فى خلال قصائدها ، ويتفق لهـا فى البيت بعـد البيت على غـير تعمـد وقصـد ، فلمـا أفضى الشعر الى المحدثين ، ورأوا مواقـع تلك الأبيـات من الغـرابة والحسن ، وتميزها على أخواتها فى الرشـاقة واللطف تكلفـوا الاحتذاء عليهـا ، فسموه البديـع ، فمـن محسـن ومسىء ، ومحمود ومذموم ، ومقتصد ومفـرط » •

وبينمـا كانت تلك الطائفـة من الشعراء المحدثين يتكلفـون فى شعرهم ، ويعمدون الى الألوان البيانية ، والبديعية عمـدا ، ويؤثرونها على جـودة المعنى ، واصـابة الغـرض كانت هناك طائفـة أخـرى تترسـم خطـا الأقدمين ، وتسـير على طريقتهـم فى التشبيهات ، والاستعارات ، والمحسنات ولا تحـدث فى الشـعر ألوانا جـديدة الا بالقـدر الذى يتفق والروح العربية ، فجـاء شعرهم امتدادا لشعراء الأقدمين ، فـلم ينفصلوا عن عمـود الشـعر ، ومناهجه الا من حيث صفاتهم العقلية التى فرضتها الثقـافة ، وتغـير البيئـة •

فصـار الشعر ــ اذن ــ شعرين ، بينهمـا فى الصياغة والمعانى تفـاوت غـير قليـل ، وكان هـذا موضـع اختلاف بين النقـاد ، أيهمـا أحسـن ؟ الشعر الجـزل الذى يصدر عن الفطـرة والوضوح أم شـعر الصنعة والتعمل ؟ كانت هنـاك خصومة بين المذهبين اللذين توصـدا وتحـددا ، وكان لـكل منهمـا أشياع وأنصـار •

وكان أبو تمام أكثر الشعراء تصنعا ، وتوشية ، وهذا دفعه الى الاحالة والتقصير فى كثير من الأحوال . يقول الباقلانى(٤) : « وربما أسرف أبو تمام فى المطابق ، والمجانس ، ووجوه البديع حتى استثقل نظمه ، واستوخم رصفه » ، ويقول القاضى الجرجانى(٥) : « فانه - يقصد أبا تمام - حاول من بين المحدثين الاقتداء بالأوائل فى كثير من ألفاظه ، فحصل منه على توعير اللفظ فقبح فى غير موضع من شعره .. فتعسف ما أمكن ، وتغلغل فى التصعب كيف قدر ، ثم لم يرض بذلك حتى أضاف اليه طلب البديع ، فتحمله من كل وجه ، وتوصل اليه بكل سبب ، ولم يرض بهاتين الخلتين حتى اجتلب المعانى الغامضة ، وقصد الأغراض الخفية ، فاحتمل فيها كل غث ثقيل » فشعر أبى تمام يختلف كثيرا عن شعر عصره ومن جاء بعده فكرا ، وصياغة ، فأفكاره مزيج من معارف متنوعة ، ومتباينة كالفلسفة والفقه ، وعلم الكلام وغير ذلك ، كما جاءت ألوانه البديعية ممتزجة ، يدخل بعضها فى بعض مما يجعلنا « نحس كأن الشعر أصبح تنميقا ، وزخرفا خالصا ، فكل بيت فى القصيدة انما هو وحدة من وحدات هذا التنميق والزخرف ، وهو ليس زخرفا لفظيا فحسب ، بل هو زخرف لفظى ومعنوى ، يروعنا فيه ظاهره وباطنه ، وما يودعه من خفيات المعانى ، وبراعة اللفظ »(٦) .

---

(٤) اعجاز القرآن ص٥٣ .
(٥) الوساطة ص١٩ .
(٦) الفن ومذاهبه ص٢٢٣ .

وتجاذب النقاد مذهب أبى تمام فى البديع ، فمنهم المؤيد المتعصب ، ومنهم المستهجن المستزذل ، ونظروا فى شعر البحترى فوجدوه يقف فى الصف المقابل لأبى تمام فى صناعة الشعر وفهمه ، فكان كأمثال بشار وأبى نواس ، بينما كان أبو تمام من أمثال مسلم بن الوليد ، بل لقد بلغ عنده غايته من التنميق العقلى ، والتأنق اللفظى ، ففضل بعض النقاد البحترى .

واحتدم الجدل بين المؤيدين لأبى تمام فى صنعته ، وبين أنصار البحترى ، فالمؤيدون لأبى تمام يفضلونه ، لأنه أميل الى التدقيق ، والتفلسف فى الكلام ، والابتكار فى الصياغة ، والآخرون يفضلون البحترى ، لأن شعره أميل الى النفس ، وأقرب الى الطبع ، بعيد عن التكلف . وتبارى الطرفان فى النقد ، وطوقوا كثيرا من المسائل ، وألفوا فيها كتبا كل حسب رأيه ، واعتقاده ، يؤيد الشاعر الذى يمثل مذهبه ، ويعارض من يخالفه ، مبينا فيما يكتب محاسن ما يذهب اليه ، ومقابح ما ذهب اليه الآخرون ، فألف الآمدى كتابه الموازنة بين أبى تمام والبحترى ليحاول الفصل فى الخصومة التى نشبت بين أنصار كل منهما .

وكما نشبت خصومة حول مذهب أبى تمام نشبت خصومة حول المتنبى ، ولكنها لم تكن حول مذهب شعرى كما كانت حول أبى تمام ، فشعر المتنبى لم يصدر كله عن مذهب أصحاب البديع ، وانما كان كذلك — كما يقول القاضى الجرجانى(٧)

---

(٧) الوساطة ص٤٩ — ٥٠ .

فى صدر حياته ، أما بعد ذلك فان النقاد لم يستطيعوا أن ينسبوه الى مذهب بعينه ، يقول القاضى الجرجانى : « فانك لا تدعى لأبى الطيب طريقة بشار ، وأبى نواس ، ولا منهاج أشجع والخزيمى ، ولو ادعيته انما كنت تخادع نفسك ، أو تباهت عقلك ، وانما أنت أحد رجلين : اما تدعى له الصنعة المحضة فتلحقه بأبى تمام ، وتجعله من حزبه ، أو تدعى له فيه شركة وفى الطبع حظا . فان ملت به نحو الصنعة فضل ميل صيرته فى جنبة مسلم ، وان وفرت قسطه من الطبع عدلت به قليلا نحو البحترى ، وأنا أرى لك اذا كنت متوخيا للعدل ، مؤثرا للانصاف أن تقسم شعره ، فتجعله فى الصدر الأول تابعا لأبى تمام ، وفيما بعده واسطة بينه وبين مسلم » .

فالخصومة حوله - اذن - لم تكن استمرارا للخصومة حول أبى تمام ، وانما هى خصومة من نوع آخر ، فالمتنبى ظهر فملأ الدنيا ، وشغل الناس - كما يقول ابن رشيق - واختصم الأدباء فى شعره ، وقطعوا الأزمان المتواصلة فى تحديد أغراضه ، وتعصب له فريق ، وغض من شأنه فريق ، فمن الذين غضوا من شعره (الصاحب بن عباد) الذى ألف فيه رسالة أسماها « الكشف عن مساوىء المتنبى » . ومن الذين رفعوا من شأنه وأشادوا بشعره أبو الفتح عثمان بن جنى ، وكان لكل منهما أنصار وأشياع ، فكتب القاضى الجرجانى كتابه الوساطة بين المتنبى وخصومه ليحكم حكم القاضى العادل . يقول الثعالبى

فى اليتيمة(٨) : « ولما عمل الصاحب رسالته المعروفة فى اظهار مساوىء المتنبى عمل القاضى أبو الحسن كتاب الوساطة بين المتنبى وخصومه فى شعره فأحسن وأبدع وأطال ، وأصاب شاكلة الصواب ، واستولى على الأمر فى فصل الخطاب ، وأعرب عن تبحره فى الأدب ، وعلم العرب ، وتمكنه من جودة الحفظ ، وقوة النقد ، فسار الكتاب ، وطار فى البلاد بغير جناح » .

والمؤلفان يتشابهان فى أشياء كثيرة ، فكلاهما يخوض فى شعراء محدثين ، ويدرس عصرا تجمعت فيه الأصول الأدبية ، فتعرض كلاهما لأمهات المسائل وانتهيا الى حكم واحد ، وان تفاوتا ذوقا ، ومنحى ، وتصويرا ، وكلاهما حلل ما كثر فى اشعار المحدثين من بديع ، وتعقيد وغموض وابعاد فى الاستعارة ، وغلو فى المعنى ، وسرقة ، وكلاهما صور تصويرا حسنا آراء الخصوم ، والأنصار ، ويقف بينهما موقفا عدلا ، وكلاهما يعتذر عن المحدثين فيما سقطوا فيه بأخطاء الجاهلين والاسلاميين . وكلاهما يحفل بالذوق والنقد .

والكتابان يعدان من أعظم كتب التراث فائدة للشعراء ، والنقاد ، والبلاغيين ، فهما سجلان حافلان بالأحكام النقدية ، والبديعية التى كانت سائدة فى القرن الرابع الهجرى ، وما قبله ، بالاضافة الى ملاحظات كل من الآمدى والجرجانى .

فالآمدى سجل حجج أنصار كل من أبى تمام ، والبحترى .

---

(٨) ج ٣ ص٢٣٩ .

ورد كل فريق على الآخر ، وهو بهذا جمع كل الاراء حول شعر المحدثين ، ووجهة نظر المؤيدين والمعارضين • وتعرض للسرقات التى نسبت لأبى تمام ، ثم أخذ فى دراسة أخطائه وعيوبه فى اللفظ والمعنى ، وما فى استعاراته من ابعاد ، وما فى بديعه من اسراف وقبح ، وما كثر فى شعره من الزحاف ، واضطراب الوزن ، وما فيه من تعقيد ألفاظ نسجه ، ووحشى ألفاظه •

وعند حديثه عن البحترى تعرض لما نسب اليه من سرقات من الشعراء عامة ، ومن أبى تمام خاصة ، وناقش ذلك مبرزا ما تصح فيه السرقة ، وما لا يصح اطلاقها عليه ، ثم أخذ بالحديث عن أخطائه فى المعانى ، والتعقيد فى شعره ، وردىء تجنيسه ، واضطراب الأوزان فى شعره ، ثم وازن بين الشاعرين فى موضوعات معينة ، وهى موازنة فريدة فى تاريخ التراث الأدبى •

والقاضى الجرجانى عرض فى كتابه الوساطة لبعض أخطاء السابقين كمقدمة للاعتذار عن شاعره ، ثم بدأ فى الدفاع عنه • ويذكر ما عابه العلماء على أبى الطيب ، وما أخذ عليه ، ويناقش كل ذلك ويحلله ، ويفصل القول فيه • وهو فى أثناء ذلك يعرض للأصول الأدبية التى عرفت فى عصره ، محللا أشعار القدماء والمحدثين ، ذاكرا كثيرا من محاسنهم ، وعيوبهم ، وما شاع فيها من تعقيد وغموض ، وأخذ وسرقة ، واستعارة حسنة أو رديئة ، وعرض لأثر البيئة فى الشاعر ، وما يتبع ذلك من أثر فى شعره ، وما تحدثه من جفوة ، أو رقة ولين •

فالكتابان طوقا كثيرا من الأحكام النقدية ، والمقاييس البلاغية التى أتخذت منها أصول للبيان وللبديع ، وأسس للأدب وللنقد . واتفق المؤلفان فى كثير من هذه الأسس ، وتلك الأصول .

فمن المقاييس التى تعرض لها المؤلفان ، مقاييس فصاحة الكلمة والكلام ، فالآمدى يدعو الى خلو الكلام من الألفاظ الحوشية الغريبة ، ومن مخالفة القياس ، حيث يعقد بابا(٩) فى سوء نظم أبى تمام ، وتعقيد ألفاظ نسجه ، ووحشى ألفاظه ؛ ويورد قول عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ فى زهير ابن أبى سلمى « كان لا يعاظل بين الكلام ، ولا يتتبع حوشيه ، ولم يمدح الرجل الا بما فيه » ثم يذكر أن أهل العلم فسروا معنى المعاظلة بمداخلة الكلام بعضه فى بعض ، وركوب بعضه لبعض ، والحوش بالألفاظ التى لا تتكرر فى كلام العرب كثيرا ، واذا وردت وردت مستهجنة ، ثم يذكر أن فى شعر أبى تمام كثيرا من المعاظلة ، والحوش من الكلام ، ويذكر لذلك شواهد منها قوله :

خان الصفاء أخ خان الزمان أخا
عنه فلم يتخون جسمه الكمد

ويعلق عليه بقوله : « فانظر الى أكثر ألفاظ هذا البيت . وهى سبع كلمات ، آخرها قوله (عنه) ما أشد تشبث بعضها ببعض ، وما أقبح ما اعتمده من ادخال ألفاظ فى البيت من أجل

---

(٩) ص٢٥٨ وما بعدها ، تحقيق محى الدين .

ما يشبهها ، وهو (خان) ، و (خان) و « يتخون » ، وقوله (أخ) و (أخا) ، واذا تأملت المعنى مع ما أفسده من اللفظ لم تجد له حلاوة ، ولا فيه كبير فائدة » .

وكذلك قوله :

يا يوم شرد يوم لهوى لهوه
بصبابتى وأذل عز تجلدى

ويعلق عليه بقوله « فهذه الألفاظ الى قوله (بصبابتى) فانها سلسلة من شدة تعلق بعضها ببعض ، وقد كان أيضا استغنى عن ذكر اليوم فى قوله (يوم الهوى) لأن التشريد انما هو واقع بلهوه ، فلو قال (يا يوم شرد لهوى) لكان أصح فى المعنى من قوله (يا يوم شرد يوم الهوى) وأقرب فى اللفظ ، فجاء باليوم الثانى من أجل اليوم الأول ، وباللهو الثانى من أجل اللهو الذى قبله . ولهو اليوم أيضا بصبابته هو أيضا من وساوسه وأخطائه » .

ومنه قوله أيضا :

يوم أفاض جوى أغاض تعزيا
خاض الهوى بحرى حجاه المزبد

ثم يقول : « فاذا تأملت شعره وجدت أكثره مبنيا على هذا وأشباهه ، وقد ذكرت من هذه الأمثلة من شعره ما دل على سواها » .

ويفرق بين التعقيد ، وبين قول البلغاء والفصحاء فى وصف الجيد من الكلام : « هذا كلام يدل بعضه على بعض ، وآخذ بعضه برقاب بعض » بأن هذا الوصف لم يقصد به وصف هذا النوع من التأليف ، وانما أرادوا المعانى اذا وقعت ألفاظها فى مواقعها ، وجاءت الكلة مع أختها المشاركة لها التى تقتضى أن تجاورها بمعناها ، اما على الاتفاق ، أو التضاد حسبما توجبه قسمة الكلام •

وتعليق الآمدى على هذه الأبيات يدل على ذوقه الرفيع ، واحساسه المرهف ، ففى الأبيات تعقيد لفظى مع ما فيها من تنافر بسبب تكرير بعض الحروف فى معظم الكلمات ، فحرف الخاء مثلا فى البيت الأول تكرر خمس مرات ، والنون كذلك ، وفى البيت الثانى فيه تكرار (يوم ولهو) ويمكن الاستغناء كما ذكر الآمدى عن بعضها • ولا يخفى مافى البيت الثالث من تكرير لبعض الحروف ، وابعاد فى الاستعارة •

وشرحه للمعاظلة يدل على أنه واسع الخبرة بالأدب والشعر ، وأنه كان سليم الفطرة ، صادق الذوق ، فهو لم يأخذ برأى قدامة بن جعفر الذى شرح المعاظلة بمداخلة بعض الكلام فيما ليس من جنسه ، ثم قال(١٠) : وما أعرف ذلك الا فاحش الاستعارة ، مثل قول أوس بن حجر :

وذات هدم عار نواشرها
تصمت بالماء تولبا جدعا

---

(١٠) نقد الشعر ص٦٩ •

فسمى الصبى تولبا ، والتولب ولد الحمار .

فلم يقبل الآمدى تفسير قدامة ، وقال(١١) : « فغلط - أى قدامة - فى أمثلة المعاظلة غلطا قبيحا » وقد أخذ اللاحقون برأى الآمدى ، ولم يأخذوا بخلط قدامة .

ويذكر الآمدى شواهد عديدة لحوشى الكلام من شعر أبى تمام(١٢) ، منها قوله :

أهلس أليس لجاء الى هم
تغرق الأسد فى آذيها الليسا

ويروى أهيس أليس . ومنها قوله :

وان بجيرية نابت جأرت لها
الى ذرى جلدى فاستؤهل الجلد(١٣)

ويورد الآمدى أمثلة كثيرة من هذا النوع ثم يقول : « فمثل هذه الألفاظ لا يستعملها شاعر متقدم الا أن يأتى فى جملة شعره منها اللفظة واللفظتان ، وهى فى شعر أبى تمام كثيرة فاشية » .

---

(١١) الموازنة ص٢٥٩ .

(١٢) ص٢٦٤ . اهلس : خفيف اللحم - الأليس : الشجاع - والليسا : جمع اليس - والآزى : المدج .

(١٣) البجيرية : الداهية - نابت : أصابت - جأرت : رفعت صوتى - والذرى : الأعالى .

هـكذا حديث الآمدى عن تعقيـد أبى تمـام ، ووحش ألفاظه ، وهـو حديث يـدل على كثـرة ما استفاده من كـلام السابقين فى هـذا الموضوع ، كمـا يـدل على حسن تذوقـه ، وقدرته الكبـيرة على التطبيق ، وعـلو احساسه الذى جعـله يفطن الى أن حسـن التأليف ، وبراعة اللفظ يزيـد المعنى المكشوف بهـاء ، وحسنا ورونقا حتى كـأنه قـد أحـدث فيـه غرابة لـم تكن ؛ وزيادة لم تعهد ، وهـذا هـو رأى معظـم النقاد اليـوم ممـا يدفعنا الى أن نقول : ان الآمدى ناقـد كبـير ، وبمعـرفة فـن القـول بصـير .

ويتفق القاضى الجرجانى مع الآمدى فى أن غرابة اللفظ ، وتوحشه، ومخالفة مقاييس اللغـة تخـل بالفصاحة ، وتعيب منظـومه ومنثوره. يقـول بعـد أن ذكـر أن لـو كـان التعقيد ، وغمـوض المعـنى يسقطان شـاعرا لوجب ألا يـرى لأبى تمـام بيت واحد ، اذ لا توجد لـه قصيدة تخلو من بيت أو بيتين دون تعقيد وغموض ، يقول(١٤) ، « ولسـنا نريد القسـم الذى خفـاء معانيه ، واستتارها من جهـة عـرابة اللفظ ، وتوحش الكـلام ، ومن قبـل بعـد العهد بالعـادة ، وتغـير الرسـم كاختلاف النـاس فى قـول تميـم بن مقبـل :

يا دار سـلمى خـلاء لا أكلفهـا
الا المـرانة حتى تعـرف الدينـا

فـان الذى خـالف بين أقاويلهم فيهـا هـو أنهـم لم يعرفوا المـرانة ، فقال قـائل : هى ناقته ، وقـال آخـر : هى موضع دار

---

(١٤) الوساطة ص٤١٧ وما بعدهـا .

صاحبته ، وقال آخر : انما أراد الدوام والمرونة ، وكقول امرىء القيس :

نطعنهم سلكى ومخلوجة
كرك لأمين على نابل

لما لم يعرفوا : هل الكاف من كرك فتكون اللأمان مفردين ، أو الكر مفردا ، ويكون اللام موصولا ، اختلفوا .

وانما أريد مثل قول الأعشى :

اذا كان هادى الفتى فى البلا
د صدر القناة أطاع الأمير

فان هذا البيت — كما تراه — سليم النظم من التعقيد ، بعيد اللفظ عن الاستكراه ، لا تشكل كل كلمة بانفرادها على أدنى العامة ، فاذا أردت الوقوف على مراد الشاعر فمن المحال عندى ، والممتنع فى رأيى أن تصل اليه الا من شاهد الأعشى بقوله ، فاستدل بشاهد الحال ، وفحوى الخطاب ، فأما أهل زماننا فلا أجيز أن يعرفوه الا سماعا اذا اقتصر بهم من الانشاد على هذا البيت المفرد » ثم يشرح البيت بقوله : « انه يريد : أن الفتى اذا كبر فاحتاج الى لزوم العصا أطاع لمن يأمره وينهاه ، واستسلم لقائده ، وذهبت شرته » .

فالتعقيد عند القاضى الجرجانى نوعان : نوع معاب ، وهو الذى يأتى فيه الخفاء من جهة غرابة الألفاظ وحوشيتها حيث

يختلف العلمـاء فى معانيها ، ولا يعـرف ما يريـده الشاعر منهـا • والنـوع الثـانى : الغموض فيـه خـاص بالأفكار ، وهـذا النوع منتشر فى كـل الشـعر ، ومن أجـله شرحـت الدواوين ، وصنفت المصنفات ، وشغل الأدبـاء بتبسيطه ، واستخراج الأفكار والخواطر • وهـذا النـوع ليس معـابا •

المقـاييس البديعية والبيانية فى الكتـابين

وكلمـة بديـع فى اللغـة تدور حـول الجـديد ، والمحـدث ، والمختـرع ، ولكنهـا فى الاصطلاح صـحبها تطـور ، وتدرج ، فكانت تعنى عند الجـاحظ الاستعارة والتشبيه ، ولـم نـر للجناس والطباق ذكـرا فى كتابيه : البيان والتبيين ، والحيوان(١٥) • يقول الجاحظ(١٦) معلقـا على قـول ابن رميـلة :

وان الأولى حانت بفـلج دماؤهـم
هـم القوم كـل القوم يا أم خالد

هـم ساعد الدهـر الذى يتقى بـه
وما خـير كـف لا تنـوء بسـاعد

أسـود شرى لاقت أسـود خفيـة
تساقوا على حـرد دماء الأسـاود

---

(١٥) ذكـر فى كتابه البيـان والتبيين كثـيرا ممـا سمى بالمحسنات البديعية فيمـا بعـد كالسـجع جـ ٢ ص١٩٢ — ٢٠١ ، والازدواج جـ ٢ ص٧٦ — ٩٧ ، وحسن التقسـيم جـ ١ ص١٦٩ — ١٧٠ ، واللغـز الذى عـرف فيمـا بعـد بأسلوب الحكيم جـ ٢ ص١١٦ — ١١٧ •

(١٦) البيـان والتبيين جـ ٣ ص٢٥٤ •

« قوله : (هم ساعد الدهر) انما هو مثل ، وهذ الذى تسميه الرواة : البديع ، وقد قال الراعى :

هم كاهل الدهر الذى يتقى به
ومنكبه ان كان للدهر منكب

وقد جاء فى الحديث (موسى الله أحد ، وساعد الله أشد ، والبديع مقصور على العرب ، وهن أجله فاقت لغتهم كل لغة ، وأربت على كل لسان ، والراعى كثير البديع فى شعره ، وبشار حسن البديع ، والعتابى يذهب شعره فى البديع) .

والبديع عند ابن المعتز يشمل الاستعارة ، والجناس ، والطباق ، ورد الاعجاز على ما تقدمها ، والمذهب الكلامى . وأما ما بقى من محتويات الكتاب (البديع) فقد سماه محاسن الكلام، وأباح لغيره أن يسميه بديعا اذا شاء(١٧) .

ثم اتسعت فى عهد أبى هلال العسكرى فصارت ستة وثلاثين نوعا . ثم ازدادت اتساعا فصار البديع يضم اثنين وعشرين بعد المائة عند ابن أبى الأصبع فى كتابه : تحرير التحبير ، ثم خمسين ومائة عند صفى الدين الحلى فى قصيدته التى يمدح فيها رسول الله - ﷺ - على غرار بردة البوصيرى .

واليك بعض الأحكام البديعية والأسس البيانية التى وردت فى الكتابين ..

---

(١٧) انظر البديع ص٢٥٨ .

فكلا العالمين يقرر — كما قرر من قبلهما الجاحظ وابن المعتز — أن البديع ليس من اختراع المحدثين ، فلم يحدثوه احداثا ، ولم يبتكروه ابتكارا ، بل هم مقلدون للقدماء ، وكل ما كان لهم هو الاكثار من هذه الألوان ، واطلاق اسم البديع عليها مع اختلاف ما بينهم فى مقدار عنايتهم بهذه الصنعة ، فاختلفت أساليبهم فى النظم تبعا لذلك • يقول الآمدى(١٨) : « قال صاحب البحترى : ليس الأمر لاختراعه لهذا المذهب على ما وصفته ، ولا هو بأول فيه ، ولا سابق اليه ، بل سلك فى ذلك سبيل مسلم ، واحتذى حذوه ، وأفرط وأسرف ، وزال عن النهج المعروف ، والسنن المألوف ، وعلى أن مسلما أيضا غير مبتدع لهذا المذهب ، ولا هو أول فيه ، ولكنه رأى هذه الأنواع التى وقع عليها اسم البديع وهى الاستعارة والطباق والتجنيس منشورة متفرقة فى أشعار المتقدمين فقصدها ، وأكثر فى شعره منها » •

ويقول القاضى الجرجانى فى أثناء حديثه عن أبى تمام وايجاعه له : « وأنا أدين بتفضيله ، وتقديمه ، وانتحل موالاته وتعظيمه ، وأراه قبلة أصحاب المعانى ، وقدوة أهل البديع »(١٩) ثم قال : « فلما أفضى الشعر الى المحدثين ، ورأوا مواقع تلك الأبيات من الغرابة والحسن ، وتميزها عن أخواتها فى الرشاقة ،

---

(١٨) الموازنة ص١٧ ، تحقيق محمد محى الدين .
(١٩) الوساطة ص١٩ — ٢٠ .

واللطف ، تكلفوا الاحتذاء عليها ، فسموه البديع ، فهن محسن ، ومسيء ، ومحمود ومذموم ، ومقتصد ومفرط »(٢٠) .

فالمحدثون لم يبتكروا هذه الألوان البديعية ، وانما جددوا ما وجدوه فى شعر القدماء ، فتارة يصيبون ، وأحيانا يخفقون . يقول الصولى(٢١) . وهو زعيم المتعصبين لأبى تمام : « وقد استحسن الناس — أعزك الله — لامرىء القيس تشبيه شيئين بشيئين فى بيت واحد ، قالوا : لا يقدر أحد بعده على أن يأتى بمثله ، وهو قوله فى وصف عقاب :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا
لدى وكرها العناب والحشف البالى

ولقد أحسن فيه وأجمل ، فقال بشار :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا
وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

وهذا أعمى أكمه ، لم ير هذا بعينه قط ، فشبه حدسا فأحسن وأجمل ، وشبه شيئين بشيئين فى بيت ، واستحسنوا قول النابغة يعتذر الى النعمان :

فانك كالليل الذى هو مدركى
وان خلت أن المنتأى عنك واسع

---

(٢٠) المصدر السابق ص٣٤ .
(٢١) اخبار ابى تمام ص١٧ .

خطاطيف حجـن فى حبـال متينـة
تمـد بهـا أيـد اليـك نـوازع

فقـال سـلم الخاسر يعتـزر الى المهـدى فى أبيـات :

انى أعـوذ بخـير النـاس كلهـم
وأنت ذاك بمـا تـأتى وتجتنـب

وأنت كالدهـر مبثـوثا حبـائله
والدهـر لا ملجـأ منـه ولا هـرب

ولـو ملكت عنان الريح ثم طلبتنى
فى كـل ناحيـة ما فـاتك الطـلب

وهـذا البيت الأخـير من قـول الفرزدق للحجـاج :

ولـو حملتنى الريـح ثـم طلبتنى
لكنت كـشىء أدركتـه المقـادير

فجعـل حيـال (فـانك كالليل) ــ (وأنت كالدهـر) وجعـل حيـال (خطالطيف حجـن) ــ (ولـو ملكت عنـان الريـح) ، وأحسـن » .

هـذه الأمثلة التى يوردهـا الصولى برهـان على أن المحـدثين كـانوا يجـرون بريـح المتقدمين وينتجعون كلامهم ، ويستمدون من تشبيهاتهم ، وبديعهـم ، وهى تشبيهات من أجـود القديم ، وأجـود الحديث ، ومع ذلك فهنـاك فـرق بين تشبيهات القدماء ، وتشبيهات المحـدثين .

فتشبيه امرىء القيس تشبيه أملته عليه حواسه ، وبيئته ، فيشبه قلوب الطير التى افترستها العقاب بالعناب والحشف البالى ، العناب للقلوب الرطبة ، والحشف البالى للجافة ، وهو من التشبيه المتعدد .

أما تشبيه بشار وهو تشبيه تمثيلى ففيه تشبيه هيئة النقع ، وقد انعقد فوق الرؤوس ، والسيوف تضرب بالليل تتهاوى كواكبه .

فتشبيه امرىء القيس أقرب الى النفس ، ومن ثم يرى أنصار القديم أن الشعراء الجاهلين كانوا أصدق شعورا ، وتصويرا ، وأقرب الى المألوف من المحدثين الذين يغربون ، ويبعدون بنا عن معطيات الحواس المباشرة التى هى مادة الشعر ، وسبيله الى اثارة الصور فى نفوس السامعين ، وبعث الأصداء الملازمة للواقع .

والنابغة لم يذهب بعيدا ليدل على قدرة النعمان ، بل ننظر الى الليل الذى يدرك كل مخلوق أينما كان ، فشبهه به فكان تشبيها صادقا محسا يشع منه الرعب والخوف . ثم يجسم وقوعه المحتوم فى يد النعمان الذى أوعده ، فقاده نظره ، ودفعته حواسه الى الدلو معلقة بالخطاطيف الحجن ، لا يستطيع منها افلاتا ، وما على الماتح الا أن يجذبها اليه لتأتيه ، فشبه موقفه من النعمان وأنه قادر على الامساك به بهذه الدلو ، وتلك صورة حسية مألوفة واضحة لكل عربى .

وبيت الفرزدق وهو يمثل مرحلة وسطا بين الجاهلين ، والمحدثين يعبر عن خوفه من الحجاج بفرض مستحيل ، أو بعيد التحقيق على أقل تقدير (ولو حملتنى الريح) وهذا أضعف من قول النابغة (فانك كالليل الذى هو مدركى) والفرض أبعد من التقرير ، كما أن ادراك المقادير ليس فيه من الظلال مافى الليل ، وليس فيه ذلك المعنى المحس الذى ندركه جميعا بتجاربنا اليومية عندما يحتوشنا الظلام ، فالليل شىء حسى مباشر له ايحاءاته ، وأما المقادير فمعنى مجرد بعيد لا يثير فى نفوسنا ما يثيره الليل •

وأما الخاسر فقد أمعن فى التجريد ، فاستبدل الليل بالدهر ، والدهر شىء غامض مجرد ، لا يثير فى نفوسنا شيئا محدودا ، وكذلك استبدل (خطاطيف حجن) بـ « لو ملكت عنان الريح وهذا فرض لا يمكن أن ينهض للخطاطيف التى يعرفها السامع ، ويرى صورتها ، ويدرك دلالتها •

وعلى هذا نرى الفارق بين المذهبين : مذهب القدماء المطبوع العريق فى حقيقة التصوير من حيث انه يصاغ من معطيات الحاوس المباشرة ، بعيدا عن التجريد والاغراب • ومذهب المحدثين الذين يسرفون ، ويقتسرون ، ويضربون فى عالم المجردات •

* * *

وكلا الناقدين ينص على أن الاكثار من البديع ، والالحاح فى طلبه يفسد المعنى ، ويسىء الى الأفكار بالتعقيد ، أو الغموض والاحالة •• فالآمدى يندد بأبى تمام لولوعه به ، ويشرح

ما فطن اليه النقاد فى القرن الثالث الهجرى فى شعر أبى نمام ، كقولهم : « ان أبا تمام يريد البديع فيخرج الى المحال » وقولهم : « انه سلك فى البديع مسلك مسلم فتحير فيه » يشرح الآمدى ذلك قائلا(٢٢) : « كأنهم يريدون اسرافه فى طلب الطباق والتجنيس والاستعارة .. حتى صار كثير مما أتى به من المعانى لا يعرف ، ولا يعلم غرضه فيها الا مع الكد والفكر ، وطول التأمل ، ومنه مالا يعرف معناه الا بالظن والحدس » ويأسف لأن أبا تمام استكره هذه الأشياء استكراها ، واقتسرها اقتسارا ، وهجن بها ما لعلة أكثر من ثلث شعره ..

وفى مكان اخر يقول(٢٣) : « وينبغى أن تعلم أن سوء التأليف ، وردىء اللفظ يذهب بطلاوة المعنى الدقيق ، ويفسده : ويعميه حتى يحتاج مستمعه الى طول تأمل ، وهذا مذهب أبى تمام فى معظم شعره » .

هذه العبارات من الآمدى تدل على أن مذهبه فى البديع هو الاقتصاد ، ويجب أن يأتى فى الكلام ان أتى خادما للفكرة ، لائقا بالمعنى .

وحديثه عن التجنيس يدل على ذلك فهو بعد أن عرفه ، وذكر أمثلة له من الشعر الجاهلى والاسلامى ، وأنه كان فى شعر الأوائل قليل ، فكان يأتى منه فى القصيدة البيت الواحد ،

---

(٢٢) الموازنة ص١٢٥ .

(٢٣) ص٣٨١ .

أو البيتان ، وربما خلا ديوان الشاعر المكثر فلا نرى فى شعره لفظة واحدة بعد ذلك يقول(٢٤) : « والطائى استفرغ وسعه فى هذا الباب ، وجد فى طلبه ، واستكثر منه ، وجعله غرضه ، فكانت اساءته فيه أكثر من احسانه ، وصوابه أقل من خطائه » .

ويورد أبياتا قبح فيها تجنيس أبى تمام ، منها قوله(٢٥) :

ان من عق والديه لملعو
ن ، ومن عق منزلا بالعقيق

وقوله :

ذهبت بمذهبه السماحة فالتوت
فيه الظنون أمذهب أم مذهب ؟

وقوله :

خشنت عليه أخت بنى خشين

ويعلق عليها بقوله : « فهذا كله تجنيس فى غاية الشناعة والركاكة والهجانة . ثم يورد بيتا نص عليه ابن المعتز فى كتابه البديع بأنه قبيح التجنيس وهو قوله :

---

(٢٤) ص٢٥٣ .
(٢٥) ٢٥١ ، ٢٥٢ .

فاسلم سلمت من الآفات ما سـلمت
سـلام سلمى ومهما أورق السـلم

ويعـلق عليـه بأنـه من كـلام المبرسمين •

وحـديث الآمدى عن الطبـاق كحديثه عن الجناس بأنـه اذا أتى غـير متعمـد حسـن ، وان اسـتكره استهجن ، وغـلق بـه المعـنى •

وكـل ما قـاله الآمدى من ملحوظات عن البديع قالها البلاغيون ، والنقـاد من بعـده ممـا يشجعنا على أن نجـزم بأنـه لـم يكن متعصبا للبحترى ضـد أبى تمـام ، فقـد نقـد البحترى كمـا فعـل مع أبى تمـام ، فمثـلا يقـول(٢٦) عن تجنيس البحتـرى :

حييت بـل سـقيت من معهـودة
عهـدى غـدت مهجـورة ما تعهـد

« ويروى (سقيت من معمـورة) يخـاطب الدمن ، عهدى بهـا معمـورة معهـودة ، ومن روى (معهـودة عهـدى) أى : عهـدى بهـا معهـودة فغـدت معهودة ما تعهـد ، وقـد يكون العهـد من التعهـد ، ويكون قـوله (ما تعهـد) أى : قـد نسيت ، وهـذا يشـبه تجنيسات أبى تمـام » •

وان كـان قـد أحصى من أخطـاء أبى تمـام أكثـر مما أحصاه للبحترى فى كـل باب ذكـره ، أو موازنة بينهما فهـذا لا يدل على

---

(٢٦) ص٣٦٩ - ٣٧٠ •

تعصبه ، لأن ما قاله عن أبى تمام سواء فى اللفظ والمعنى ، أو فى البديع مطابق لمذهبه ، فهو يميل الى الوضوح ، وصفاء المعنى ، وهذا لا يتأتى الا بالاقتصاد فى البديع ، والبعد عن الفلسفة ، والمصطلحات العلمية ، اذ الاكثار من البديع وتكلفه يغمض المعنى ، ويعوقه خاصة اذا كان ممتزجا بألوان أخرى ، أو أخذ من المصطلحات العلمية ، وهذا ما كان يعتمد عليه أبو تمام ، اذ استطاع أن يستوعب الفلسفة ، وألوان الثقافة ، ويتخذ منها مادة تصويره ، ويصوغ منها بعض ألوانه البديعية فى كثير من شعره ، فالتصوير والطباق والجناس والمشاكلة وغيرها يمتزج بالفلسفة وألوان الثقافة فى معظمه مما جعل شعره يجلل بالغموض فى كثير من جوانبه ، فالأفكار ، والصور ، وكل ما يعتمد عليه أبو تمام يلتف فى ثياب من هذا الغموض ، بدليل أن العباسيين وقفوا طويلا أمام شعره ، وتحدثوا عما فيه من صعوبة والتواء . يقول الآمدى(٢٧) : « انه ينسب الى غموض المعانى ، ودقتها ، وكثرة ما يورده مما يحتاج الى استنباط وشرح واستخراج » . ويروى الرواة أن أعرابيا سمع قصيدته(٢٨) « طال الجميع لقد عفوت حميدا » فقال : « ان فى هذه القصيدة أشياء أفهمها ، وأشياء لا أفهمها ، فاما أن يكون قائلها أشعر الناس ، واما أن يكون جميع الناس أشعر منه » . ويقص الآمدى(٢٩) ، أن ابن الأعرابى اللغوى

---

(٢٧) ص١٠ .

(٢٨) أخبار الصوف ص٢٤٥ .

(٢٩) الموازنة ص٢١ .

المعروف سمع شعره فقال : « ان كان هذا شعرا فكلام العرب باطل » وغير ذلك من الأقوال الكثيرة التى تسم شعر أبى تمام بالاستغلاق والغموض ، والتقصير والاحالة • وهذا يرجع الى تطويع الفلسفة ، وأنواع الثقافة لشعره • قال القاضى الجرجانى(٣٠) : « فخبرنى هل تعرف شعرا أحوج الى تفسير بقراط ، وتأويل أرسطو ليس من قوله : — يصف الخمر — :

جهمية الأوصاف الا أنهم
قد لقبوها جوهر الأشياء

وقوله يمدح المأمون والمعتصم :

يوم أفاض جوى أغاض تعزيا
خاض الهوى بحرى حجاه المزبد

ففى شعر أبى تمام الكثير من الفلسفة أو المصطلحات العلمية — كما قلنا — أنظر الى قوله :

فلو صح قول الجعفرية فى الذى
تنص من الالهام خلناك ملهما

جانس بين الالهام وملهم ، ولكنه جناس يفهم بالرجوع الى كتب العقائد والنحل •

---

(٣٠) الوساطة ص٢٠ •

قـال التبريزى(٣١) : « الجعفرية قـوم من الشيعة ينسبون الى جعفـر بن محمـد ، ويدعون لـه الالهـام » .

وتأمـل قـوله :

كـم فى الندى لك والمعروف من بدع
اذا تصفحت اختـيرت على السـنن

طـابق بين البـدع والسنن ، وهـو طباق يحتاج الى الرجوع الى كتب الأصـول .

واقـرأ قـوله :

لـن ينال العـلا خصوصا من الفتـ
ـيـان حتى لـم يكن نـداه عموما

طـابق بين الخصوص والعمـوم ، وهـذا يحتاج الى عـرف المناطقـة .

وقـوله :

هـب من لا شىء يريد حجـابه
ما بـال لا شىء عليـه حجـاب

طـابق بين الوجـود والعـدم حيث عبـر عن الأول بشىء ، وعن الثـانى بلا شىء ، وذلك يحتـاج الى عـرف الفلاسفة .

---

(٣١) شرح التبريزى ص٢٧٩ .

ومن طباقـاته التى أفسدت المعنى قـوله :

وصـنيعة لـك ثيـب أهديتهـا
وهى الكعاب لعـائذ بـك مصـرم

حـلت محل البكر من معطى وقـد
زفـت من المعـطى زفـاف الأيـم

فقـد جـاء فى البيت الأول بالكعاب على أن تقـوم مقام البـكر ليجعلهـا ضـد الثيب فيحـدث الطبـاق ، والكعاب هى التى نهـد ثديهـا ، وقـد تكون بكـرا ، وقـد تكون ثيبـا • وفى البيت الثـانى جعـل البـكر مقابل الأيـم ، وذلك خطـأ ، لأن الايـم هى التى مـات زوجهـا ثيبـا ، أو بكـرا ، كبـيرة أو صغيرة ، فالبكر التى مـات عنهـا زوجهـا قبـل الدخـول من الأيامى ، وهـكذا جـنى الطبـاق على البيتين فأفسدهما •

وأبو تمـام حين ينسى الفلسفة ، والتكلف يأتى ببديع رائـع ، أنظـر الى قـوله يتغـزل :

دعنى وشرت الهوى يا شارب الكاس
فـاننى للذى حسـيته حـاس

لا يوحشنك ما استعجمت من سقمى
فـان منـزله من أحسـن النـاس

من قطـع ألفـاظه توصـيل مهلكتى
ووصـل الحـاظه تقطيـع أنفـاس

متى أعيش بتأميل الرجاء اذا
ما كان قطع رجائى فى يدى يأسى

ويعلق عليها على بن عبد العزيز الحاجانى قائلا(٣٢) : « فلم يخل بيت منها من معنى بديع ، وصنعة لطيفة ، طابق وجانس واستعار فأحسن ، وهى معدودة فى المختار من غزله ، وحق لها ، فقد جمعت على قصرها فنونا من الحسن ، وأصنافا من البديع ، ثم فيها من الاحكام والمتانة والقوة ما تراه » .

والقاضى الجرجانى يرى رأى الآمدى فى البديع ، وهو الاقتصاد ، اذ يرى أن تلمسه ، وطلبه ، والانكباب عليه يؤدى الى غثاثة الشعر ، ويذهب بما تحسه النفس حين يكون الكلام مطبوعا . ويقرر ما قاله الآمدى فى أن أبا تمام لا تكاد تسلم له قصيدة من أبيات ضعيفة وأخرى غثة لاسيما اذا طلب البديع ، والتمس العويص . ويورد له أبياتا قبحت فيها استعاراته ثم يورد له أبياتا جيدة مدحها لأنها خالية من التكلف ، ثم أبياتا رديئة ، معلقا على كل مجموعة منها بما يفيد أن أبا تمام انحط بها الى الحضيض ، وألصق بالتراب ، وأن بعض شعره خفى غامض ، وبعضه فاسد فيه احالة ، وهو بهذا يمهد للدفاع عن أبى الطيب المتنبى الذى وصمه بعض النقاد والأدباء والعلماء بكثير من الأخطاء ، والعيوب والتقصير والاحالة

وحديث القاضى الجرجانى عن البديع أقرب الى العلاغة

---

(٣٢) الوساطة ص٣٢ ، ٣٣ .

منه الى الناقد ، أو هو مزيج منهما ، فيقسم التجنيس(٣٣) الى مطلق ، ومستوف ، وناقص ، ومضاف ، ويمثل للمطلق — هو الذى عرف باسم جناس الاشتقاق عند بعض البلاغيين — بقول أبى تمام :

تطل الطلول الدمع فى كل موقف
وتمثل بالصبر الديار المواثل

ويمثل للجناس المستوفى — هو الجناس التام — بقول أبى تمام :

ما مات من كرم الزمان فانه
يحيا لدى يحيى بن عبد الله

ومثل للناقص يقول الأخفش بن شهاب :

وحامى لواء قد قتلنا وحامل
لواء منعنا والسيوف شوارع

ومثل للمضاف بقول البحترى :

أيا قمر التمام أعنت ظلما
على تطاول الليل التمام

ويعلق عليه قائلا : « ومعنى التمام واحد فى الأمرين ، ولو انفرد لم يعد تجنيسا ، ولكن أحدهما صار موصولا بالقمر ، والآخر بالليل ، فكانا مختلفين » .

---

(٣٣) من ص٤١ — ٤٢ .

ويلـم القاضى الجرجانى بالمطابقة ، فيقـول : « ان لهـا شعبا خفيـة ، ويـورد طائفـة من أمثلتها ، ثم يقـول : « وقـد يجىء منهـا جنس آخـر تكـون المطابقة فيـه بالنفى كقـول البحترى :

يقيض لى من حيث لا أعـلم الهوى
ويسرى الى الشوق من حيث أعـلم

ويقـول(٣٤) : « لمـا كان قـوله (لا أعـلم) كقوله « أجهل » وكـان قـوله « أجهـل » مطابقة كـان الآخـر بمثابته » .

ومعـروف أن هـذا النـوع يسمى طبـاق السلب . ويذكـر التصحيف ، وصـحة التقسيم ، كمـا يذكـر الاستهلال ، والتخلص ، والخاتمة قـائلا(٣٥) : « والشـاعر الحـاذق يجتهـد فى تحسـين الاستهلال والتخلص ، وبعدهما الخاتمة ، فانهـا المواقف التى تستعطف أسـماع الحضـور ، وتستميلهم الى الاصغاء ، ولـم تكن الأوائل تخصـها بفضـل مراعـاة ، وقـد احتذى البحترى على مثالهم الا فى الاستهلال ، فانه عنى بـه فاتفقت لـه فيـه محاسن ، فأمـا أبو تمام والمتنبى فقـد ذهبـا فى التخلص كل مذهب ، واهتما بـه كل اهتمام ، واتفق للمتنبى فيـه خاصة ما بلـغ المـراد ، وأحسـن وزاد » .

وتظهـر نزعـة القاضى الجرجانى البلاغية فى أكثـر من موضوع فى كتـابه الوساطة ، فتظهـر عند حديثـه عن الغـلو والمبالغة ، يقـول(٣٦) : « فأمـا الافـراط فمذهب عـام فى المحدثين ، وموجود

---

(٣٤) ص٤٥ .
(٣٥) ص٤٨ .
(٣٦) ص٤٢ .

كثير فى الأوائل ، والناس فيه مختلفون ، فمستحسن قابل ، ومستقبح راد ؛ وله رسوم متى وقف الشاعر عندها ، ولم يتجاوز الوصف حدها جمع بين القصد والاستيفاء ، وسلم من النقص والاعتداء ، فاذا تجاوزها اتسعت له الغاية ، وأدته الحال الى الاحالة ، وانما الاحالة نتيجة الافراط ، وشعبة من الاغراق ، والباب واحد ، ولكن له درج ومراتب » .

وهذا يدل على أنه يقبل المبالغة والغلو الا أن يخرج بهما الشاعر عن حد المعقول الى حد الوهم الشديد الذى تصبح فيه المعانى مضادة للحقيقة تضادا يؤذى السامع ، وقد تصبح ضربا من المحال الذى يستكره ، ولا يقبل .

ثم يذكر أن المحدث اذا سمع أبياتا للأوائل فيها مبالغة واغراق تشجع على أن يقلده ، فاذا قال الشاعر القديم :

ولو أن ما أبقيت منى معلق
بعود ثمام ما تأود عودها

تشجع المتنبى أن يحاكيه ، فيقول :

كفى بجسمى نحولا أننى رجل
لولا مخاطبتى اياك لم ترنى

واذا سمع قول العوام بن عبد عمرو :

ولو أنها عصفورة لحسبتها
مسومة تدعو عبيدا وأزنما

قال ما قاله المتنبى :

وضاقت الأرض حتى كان هاربهم
اذا رأى غير شيء ظنه رجلا

فلم يكترث بالاحالة ، ولم يستقبح أن جعل غير شيء مرئيا لما استوفى عند نفسه الغاية ، واذا كان أبو تمام قد أجاز أن يكون (لا شيء) واحدا فى العدد فى قوله يهجو :

أفى تنظم قول الزور والفند
وأنت أنزر من لا شيء فى العدد

فكيف يحرم ، أو يخطر على المتنبى أن يجعله مرئيا ؟

ودفاع القاضى الجرجانى عن المتنبى ليس معناه أنه لا يقر أخطاءه التى وقع فيها وعيوبه التى أخذها عليه النقاد والأدباء ، وانما هو يقرها ، ويعيبها ، وكل ما يقصده من دفاعه أنه لا ينبغى أن نحكم على الشاعر بما أساء فيه ، بل يحكم عليه بما أحسنه وجوده ، اذ لكل شاعر اساءاته وأغلاطه ، ولا يصح أن نتخذها أساسا للحكم عليه ، فاذا كان المتنبى قد أخطأ فى أشياء فان غيره من السابقين قد أخطئوا فى مثلها ، وربما أكثر منها ، وكما أن أخطاء السابقين لم يسقطهم كذلك يجب ألا يسقط المتنبى بأخطائه .

والمتصفح لديوان المتنبى ، ومآخذ النقاد والأدباء والعلماء عليه يجد أن فى بعض شعره ثقلا وتكلفا واحالة ، وهو حين يستعمل بعض ألوان البديع لم يسر على الطريقة التى كانت

سائدة فى القرن الثالث الهجرى ، وما قبله ، بل تحلل من دقته واحكامه التى انتشح بها ، حتى ليخيل للرائى أن ألوانه قد استحالت الى ألوان أخرى تباين ما ألفناه من عهد قريب . تأمل قوله :

لمن تطلب الدنيا اذا لم ترد بها
سرور محب أو اساءة مجرم

فهو يطابق بين السرور والاساءة ، وبين الحب والاجرام ، ولكنه طباق متحلل ، اذ الاساءة لا تقابل السرور ، وانما يقابله الحزن ، والاجرام لا يقابل الحب ، بل يقابله البغض ، قال ابن حجة تعليقا على هذا البيت(٣٧) : « اتفقوا على أن هذا من الطباق الفاسد ، فان المجرم ليس بضد للمحب بوجه ، وليس للمحب ضد غير البغض » .

واقرأ قوله يمدح بدر بن عمار(٣٨) :

لو كان علمك بالاله مقسما
فى الناس ما بعث الاله رسولا
أو كان لفظك فيهم ما أنزل الـ
قرآن والتوراة والانجيلا

فهو لا يقف بمبالغاته عند المدح الذى من شأنه أن يغرى بها ، بل تعداه الى غيره من أغراض الشعر حتى وصل

(٣٧) الخزانة ص٨٧ .
(٣٨) التبيان للعكبرى ج ٣ ص٢٤٤ .

ثـم انقضت تلك السنون وأهلهـا
فكأنهـا وكأنهـم أحـلام

« وكـأنه ما سمع النـاس يقولون : ما كـان الشباب الا حلما ، وما كانت أيامـه الا نومـة نائم ، وما أشـبه ذلك من اللفظ ، فكيف يجـوز أن يكـون ذلك مسروقا » .

وعند حديثه عن أبى تمـام فنـد ما نسبه ابن أبى طاهـر من أبيـات أبى تمـام الى السرق لأنـه ممـا يشترك فيـه النـاس من المعـانى ، والجـارى على ألسنتهم(٥٣) .

والقـاضى الجرجانى يحـكم بعـدم السرقة فى المعانى المشتركة والمتداولة ، يقـول(٥٤) : « غمتى نظـرت فرأيت أن تشبيه الحسن بالشمس والبـدر ، والجواد بالغيث والبحـر ، والبليد البطىء بالحجر وبالحمار ، والشجاع المـاضى بالسيف والنار .. متقررة فى النفوس ، متصـورة فى العقـول ، يشترك فيهـا النـاطق والأبكم ، والفصـيح والأحجـم ، والشاعر والمفحـم حكمت بأن السرقـة عنهـا منفيـة ، والأخـذ بالاتبـاع مستحيل ممتنـع ، وفصلت بين ما يشبه هـذا وبيانيه ، وما يلحق بـه وما يتميز عنـه ، ثـم اعتبرت ما يصح فيـه الاختراع والابتداع ، فوجدت منـه مستفيضا متداولا متناقلا لا يعـد فى عصرنا مسروقا ، ولا يحسب مأخـوذا ، وان كـان الأصـل فيـه لمـن انفـرد بـه ، وأولـه للذى سـبق اليـه ، كتشبيه الطـلل المحيل بالخـط الدارس ، وبالبـرد النهـج ، والوشم فى المعصم ،

---

(٥٣) المصـدر السابق ص١١٤ وما بعدهـا .
(٥٤) الوسـاطة ص١٨٤ - ١٨٥ .

ثم يقـول : « فـاذا اعتبرتها تصنفت لك صنفين : امـا مشترك عـام الشركة ، لا ينفرد أحـد منه بسهم .. فـان حسن الشمس والقمر ، ومضـاء السيف وبلادة الحمـار ... ونحـو ذلك مقـرر فى البداية ، وهـو مركب فى النفس تركيب الخلقـة ، وصنف سبق المتقـدم اليـه ففـاز بـه ، ثـم تداول بعـده ، فكثـر واستعمل فصـار كالأول فى الجـلاء والاستشهاد ، والاستفاضة على ألسـن الشعراء ، فحمى نفسـه عن السرق ، وأزال عن صاحبه مذمـة الأخـذ ، كمـا يشاهد ذلك فى تمثيـل الظـلل بالكتاب والبـرد ، والفتـاة بالغـزال فى جيدهـا وعينهـا ، والمهـاة فى حسنها وصفائها » .

فالعالمـان الجليلان يتفقـان فى أن المعـانى المشتركة لا تعـد سرقة ولا أخـذا ، فالتشبيه المشترك المبتذل لا ينفـرد بـه أحـد ، ولا يصـح نسبته الى فـرد بعينـه .

* * *

ويذكـر القـاضى الجرجانى ملحوظـة أفـادت البلاغيين فى بحوثهم ، ونبهت الشعراء عند تصويرهم وهى التصرف فى التشـبيه المبتذل ليصير كالمبتدع المخترع ، وذلك بأن يضاف اليـه لفظ يستعذب أو ترتيب يستحسن ، أو توكيد يوضـع موضعه ، أو زيـادة يهتدى اليهـا أديب دون غـيره . يقـول القـاضى الجرجانى(٥٥) : « ولـم تزل العـامة والخاصة تشـبه الـورد بالخـدود ، والخـدود بالورد نثـرا ونظمـا ، وتقول فيـه الشعراء فتكثـر ، وهـو من البـاب

---

(٥٥) الوسـاطة ص١٨٧ — ١٨٨ .

الذى لا يمكن ادعاء السرقة فيه الا بتناول زيادة تضم اليه ، أو معنى يشفع به ، كقول على بن الجهم :

عشية حياتى بورد كأنه
خدود أضيفت بعضهن الى بعض

فاضافة بعضهن الى بعض له ، وان أخذ فمنه يؤخذ ، واليه ينسب . وكقول ابن المعتز :

بياض فى جوانبه احمرار
كما احمرت من الخجل الخدود

والخجل انما يحمر وجنتاه ، فأما منبت الأصداغ ، ومخط العذار فقليلا ما يحمران ، فهذا التمييز مسلم له ، وان لم يكن يسبق اليه ، ولو اتفق له أن يقول : حمرة فى جوانبها بياض لكان قد طبق المفصل ، وأصاب الغرض ، ووافق شبه الخجل ، لكن أراد أن البياض والحمرة يجتمعان ، فجعل الاحمرار فى جوانب البياض ، فراغ عن موقع التشبيه » . ويعلق على بيت أبى سعيد المخزومى :

والورد فيه كأنما أوراقه
نزعت ورد مكانهن خدود

« فلم يزد على ذلك التشبيه المجرد ، لكنه كساه هذا اللفظ الرشيق ، فصرت اذا قسته الى غيره وجدت المعنى واحدا ، ثم أحسست فى نفسك عنده هزة ، ووجدت طربة تعلم لها

أنه انفرد بفضيلة لم ينازع فيها » ثم يذكر أن السرقة اذا جاءت هذا المجيء لم تعد من المعايب ، ولم تحص فى جملة المثايب ، وصاحبها أحق بالتفضيل وبالمدح وبالتزكية .

* * *

ويذكر القاضى الجرجانى ملحوظة تتعلق بالتشبيه - أيضا - واستفاد منها البلاغيون من بعده . وهى أن التشبيه والتمثيل قد يقع تارة بالصورة والصفة ، وأخرى بالحال والطريقة(٥٦) فاذا قال الشاعر وهو يريد اطالة وقوفه : انى أقف وقوف شحيح ضاع خاتمه لم يرد التسوية بين الوقوفين فى القدر والزمان والصورة ، وانما يريد لأقفن وقوفا زائدا على القدر المعتاد ، خارجا عن حد الاعتدال ، كما أن وقوف الشحيح يزيد على ما يعرف فى أمثاله ، وعلى ما جرت به العادة فى أضرابه ، وانما هو كقول الشاعر :

رب ليل أمد من نفس العا
شق طولا قطعته بانتحاب

ونحن نعلم أن العاشق بالغا ما بلغ لا يمتد امتداد أقصر أجزاء الليل ، وأن الساعة الواحدة من ساعاته لا تنقضى الا عن أنفاس لا تحصى كائنة ما كانت فى امتدادها وطولها ؛ وانما مراد

---

(٥٦) المصدر السابق ص٤٧١ - ٤٧٢ .

الشـــاعر أن الليـــل زائـــد فى الطـــول على مقادير الليـــالى كزيـــادة نفس العاشـــق على الأنفاس(٥٧) .

وبـــذا كـــان دفـــاع اقاضى الجرجانى عن تشبيه المتنبى :

بليت بـــلى الأطلال ان لم أقف بهـــا
وقوف شحيح ضاع فى الترب خاتمه

اذ انتقـــده خصوم المتنبى بأنـــه أراد التناهى فى اطالة الوقوف فبـــالغ فى تقصـــيره ، وكـــم عسى هـــذا الشحيح بالغـــا ما بلـــغ من الشـــح ، وواقعـــا حيث وقـــع من البخـــل أن يقف على طلب خاتمه ؟

وهـــذا الدفـــاع من القـــاضى الجرجانى يـــدل على فهمه العميق للتشبيهات ، وما يقصـــد منهـــا ، والوجـــوه التى يتلمسها الأدبـــاء من ورائهـــا ، وربمـــا كانت تلك الملحوظة من البواعث التى دفعـــت عبد القاهـــر الجرجانى أن يقف طويلا أمـــام التشبيه الحسى والعقلى ، وأن يعـــلى الثانى على الأول لمـــا فيـــه من خفـــاء وبعـــد فى التشبيه والتمثيـــل .

* * *

ومن ملحوظات على بن عبد العـــزيز أن المشـــبه بـــه قـــد يكون شـــيئا واحـــدا ، ويختلف وجـــه الشـــبه باختلاف غرض القـــائل . يقـــول : « وللشعراء فى التشبيه أغـــراض ، فـــاذا شبهوا بالشمس فى موضـــع الوصف بالحسن أرادوا بـــه البهـــاء ، والرونق ، والضياء

---

(٥٧) اســـرار البلاغة ج ١ ص١٩٠ وما بعدها ، تعليق : د. خفاجى .

ونصوع اللون ، والتمام • واذا ذكروه فى الوصف بالنباهة والشهرة أرادوا به عموم مطلعها ، وانتشار شعاعها ، واشتراك الخاص والعام فى معرفتها وتعظيمها • واذا قرنوه بالجلال والرفعة أرادوا به أنوارها ، وارتفاع محلها • واذا ذكروه فى باب النفع والارفاق قصدوا به تأثيرها فى النشوء والنماء ، والتحليل والتصفية • ولكل واحد من هذه الوجوه باب مفرد ، وطريق متميز ، فقد يكون المشبه بالشمس فى العلو والنباهة ، والنفع والجلالة أسود ، وقد يكون منير الفعال كمد اللون ، واضح الأخلاق ، كاسف المنظر »(٥٨) •

وهو بهذا نبه الى ملحوظة دقيقة يحتاج اليها المحللون لأساليب التشبيه ، فلابد من ربط التشبيه بالمقام حتى تعرف الصفة المرادة من الشىء الذى له عدة صفات اذا وقع مشبها به ، فالمقام هو المعين على ادراك الصفة المقصودة من التشبيه دون غيره •

* * *

ومن ملحوظات القاضى الجرجانى أن مثل قولنا : الجندى أسد ــ من التشبيه ، وليس من الاستعارة ، فيذكر أنه لاحظ بعض الباحثين يخلطون هذا بالاستعارة ، يقول(٥٩) : « وربما جاء من هذا الباب ما يظنه الناس استعارة ، وهو تشبيه ،

---

(٥٨) الوساطة ص٤٧٤ .

(٥٩) المصدر السابق ص٤١ .

أو مثل ، فقد رأيت بعض أهل الأدب ذكر أنواعا من الاستعارة عد فيها قول أبى نواس :

والحب ظهر أنت راكبه

فاذا صرفت عنانه انصرفا

ولست أدرى هذا ، وما أشبهه استعارة ، وانما معنى البيت أن الحب مثل ظهر ، أو الحب كظهر تديره كيف شئت اذا ملكت عنانه ، فهو اما ضرب مثل ، أو تشبيه شىء بشىء » .

* * *

ويتفق الآمدى ، والقاضى الجرجانى فى اشتراط الملائمة بين الألفاظ ، والمقام الذى يقال فيه التشبيه ، أو المجاز ، أو كما يقول ابن سنان الخفاجى(٦٠) : « ألا يعبر عن المدح بالألفاظ المستعملة فى الذم ، ولا فى الذم بالألفاظ المعروفة للمدح ، بل يستعمل فى جميع الأغراض الألفاظ اللائقة بذلك الغرض ، فى موضع الجد ألفاظه ، وفى موضع الهزل أغراضه » . يقول الآمدى(٦١) : « وليس الشعر عند أهل العلم الا حسن التأنى ، وقرب المأخذ ، واختيار الكلام ، ووضع الألفاظ فى مواضعها ، وأن يورد المعنى باللفظ المعتاد فيه ، المستعمل فى مثله » وفى موضع آخر يقول(٦٢) « وينبغى أن تعلم أن سوء التأليف ، وردىء اللفظ يذهب بطلاوة

---

(٦٠) سر الفصاحة ص١٥٣ .
(٦١) الموازنة ص٣٨٠ .
(٦٢) المصدر السابق ص٣٨١ .

المعنى الدقيق ، ويفسده » ويقول(٦٣) : « واذا جاء لطيف المعانى فى غير بلاغة ، ولا سبك جيد ، ولا لفظ حسن كان ذلك مثل الطراز الجيد على الثوب الخلق ، أو نفث البعير على خد الجارية القبيحة الوجه » .

هذه المقتطفات تدل على أن الآمدى يشترط أن تكون الألفاظ ملائمة للفكرة ، وأن المعانى لها ألفاظ تناسبها حسب ما يتطلبه المقام ، فيؤدى المعنى باللفظ المستعمل فى مثله ، وهذا يشمل كل التراكيب بما فيها من تشبيهات ومجازات .

ويورد القاضى الجرجانى أبياتا من ردىء شعر أبى تمام(٦٤). منها قوله :

أأترك حاجتى غرض التوانى
وأنت الدلو فيها والرشاء

وقوله :

ضاحى المحيا للهجير وللقنا
تحت العجاج تخاله محرائا

وقوله :

تتقى الحرب منه حين تغلى
مراجلها بشيطان رجيم

---

(٦٣) نفس الصفحة .
(٦٤) الوساطة ص٦٩ .

وقــولـه :

ولى ولــم يظــلم وما ظــلم امــرؤ

حـث النجـــاء وخلفــه التنيــن

ويعـــلق عليهـا بقــوله : « فهـــو يجعــل الممدوح تارة دلـــوا ، وتـــارة محراثا ، ومـــرة رشاء ، وأخـــرى تنينـــا ، وشيطانا رجيما . وأظنـه جسـر على ذلك لمــا سمع قــول جــرير :

أيــام يدعوننى الشيطان من غـــزل

وهــن يهويننى اذ كنـت شـيطانا

وما أبعـد ما بين الكلامين ، وأشـد تفاوت ما بين الموضعين » .

فالمقـــام الذى قـــال فيــه جــرير يناسبه الشيطان ، لأنه مقـام غـــزل ومجـــون ، أمـــا المقـــام الذى قـــال فيــه أبو تمـــام فهـــو مقـــام المـــدح ، ولا تتناسب معـــه تلك الألفـــاظ التى ذكرهـــا .

ويعـــلل عبد القاهـــر الجرجانى ســبب أطـــلاق السنة القـــدح فى أبى تمـــام ، وانكـــار فضــله بأنـــه(٦٥) : « لم يبـــال فى كثيـر من مخاطبات المـــدوح بتحسين ظاهـــر اللفظ ، واقتصر على صـــميم التشـــبيه وأطـــلق اســـم الجنس الخسيس كاطـــلاق الشريف النبيه ، كقـــوله :

واذا مـــا أردت كنـت رشـــــــاء

واذا مـــا أردت كنـت قليبـــــا

---

(٦٥) اســرار البلاغة ، تعليق خفاجى ج ٢ ص١٠٧ ، ١٠٨ .

فضحك وجه الممدوح كما ترى بأنه رشاء وقليب ، ولم يحتشم أن قال :

مازال يهذى بالمكارم والعلا
حتى ظننا أنه محموم

فجعله يهذى ، وجعل عليه الحمى ، وظن أنه اذا حصل له المبالغة فى اثبات المكارم له ، وجعلها مستبدة بأفكاره ، وخواطره حتى لا يصدر عنه غيرها فلا ضير أن يتلقاه بمثل هذا الخطاب الجافى ، والمدح المتنافى » .

والملائمة بين الألفاظ ، والمقام الذى تقال فيه التشبيهات والاستعارات يجمع عليها البلاغيون والباحثون ، فعلق ابن الأثير على بيت أبى تمام(٦٦) :

يقظ وهو أكثر الناس اغضاءم على نائل له مسروق

بقوله : « أراد أن يمدح فذم » ، ثم قال « ومما هو أقبح من ذلك قوله أيضا :

تشفى الحرب منه حين تغلى
براجلها بشيطان رجيم

وقد استعمل هذا فى شعره حتى أفحش ، كقوله :

أنت دلو وذو السماحة أبو موسى
م قليب وأنت دلو القليب

---

(٦٦) المثل السائر ج ٣ ص١٨٤ .

ومـراده من ذلك أنـه جعـله سـببا لعطـاء المشار اليـه ، كمـا أن الدلـو سـبب فى امتيـاح المـاء من القليب ، ولـم يبـلغ هـذا المعنى من الاغـراب الى حـد يدندن أبـو تمـام حـوله هذه الدندنة ، ويلقيـه فى هـذا المثـال السخيف ، على أنـه لـم يقنـع بهـذا لسقطته القبيحـة فى شـعره ، بـل أوردهـا فى مواضـع أخـرى منـه ، فمن ذلك قـوله :

مـازال يهـذى بالمـكارم والعـلى
حـتى ظننـا أنـه محمـوم

فـانه أراد أن يبـالغ فى ذكـر الممـدوح باللهـج بالمكارم ، والعـلا ، فقـال : مازال يهـذى ، ولا أعـلم ما كانت حـاله عند نظـم هـذا البيت » .

والبغدادى علق على البيت السـابق(٦٧) « مازال يهـذى .. » بقـوله : « فجمـع لـه بين لفـظ الهذيان ، وخلط الحمى . ولعـل أبـا تمـام حين قـال هـذا كان محموما ، والا فالسامع لا يستحسن هـذا الخطـاب لمـن يهجـوه ، فكيف لمـن يمدحه . وكـذا قوله :

أنت دلـو وذو السماحة أبو مـوسى
م قـليب وأنـت دلـو القـليب

ومـراده أنك سـبب الى عطـاء أبى موسى ، كمـا أن الدلـو سـبب الى استخراج مافى القليب ، وهـو معنى حسـن الا أن جعـل

---

(٦٧) الاكسـير فى عـلم التفسير ص٢٧٥ .

الممدوح دلوا تفريط فقبح لما تقدم عن أن المعتبر فى هذا العلم المعنى واللفظ معا » .

هذه التعليقات ، — ومثلها كثير — نستشف منها أن المعانى وحدها لا تصلح لعقد صلة ، ومناسبة بين المشبه والمشبه به ، بل لابد من ملاحظة الألفاظ التى يؤدى بها ، فينتقى منها ماهو ملائم للمعنى والمقام .

* * *

ويتفق الباحثان على أصول الاستعارة ، ووجوه حسنها ، وقبحها ، وزبدة ما قاله الآمدى فيها أنها موجودة فى كلام العرب الأوائل ، وأنهم كانوا يستعيرون(٦٨) « المعنى لما ليس له اذا كان يقاربه ، أو يدانيه ، أو يشبهه فى بعض أحواله ، أو كان سببا من أسبابه ، فتكون اللفظة المستعارة حينئذ لائقة بالشىء الذى استعيرت له ، وملائمة لمعناه » وعلى هذا جاءت الاستعارات فى كتاب الله تعالى ، وفى شعر الأوائل .

وفى موضع آخر يقول : « وانما تستعار اللفظة لغير ماهى عليه اذا احتملت معنى يصلح لذلك الشىء الذى استعيرت له ، ويليق به ، لأن الكلام انما هو مبنى على الفائدة فى حقيقته ومجازه ، واذا لم تتعلق اللفظة المستعارة بفائدة فى النطق فلا وجه لاستعارتها »(٦٩) .

---

(٦٨) الموازنة ص٢٣٤ .

(٦٩) ص١٧٩ .

فالآمدى يشترط المشابهة ، أو الصلة والمناسبة بين المستعار له ، والمستعار منه ، وكل استعارة لا يتوفر فيها ذلك فهى معابة ، ولذلك عقد بابا خاصا لاستعارات أبى تمام القبيحة ، وهى استعارات لم يتوفر فيها الشرط ، فهى — فى أغلبها — تشخص الدهر وتجعل له أخدعا ، ويدا تقطع من الزند ، وكأنه يصرع ، ويحل ، ويشرق بالكرم ، ويبتسم ، وتجعل الزمان أبلق ، وتجعل للمدح يدا ، ولقصائده مزامر الا أنها لا تنفخ ، ولا تزمر ، وتجعل لصروف النوى قدا ، ويقول الآمدى عنها(٧٠) : « وهذه الاستعارات فى غاية القباحة والهجانة ، والبعد عن الصواب » .

والجرجانى يحد الاستعارة بقوله(٧١) : « وانما الاستعارة ما اكتفى فيها بالاسم المستعار عن الأصل ، ونقلت العبارة فجعلت فى مكان غيرها ، وملاكها تقريب التشبيه ، ومناسبة المستعار له المستعار منه ، وامتزاج اللفظ بالمعنى حتى لا يوجد بينهما منافرة ، ولا يتبين فى أحدهما اعراض عن الآخر » .

فاشترط كما اشترط الآمدى وجود المشابهة بين المستعار له ، والمستعار منه ، وكلاهما يوجب عدم المنافرة بين الطرفين ، يقول الآمدى(٧٢) : « وأن تكون الاستعارات ، والتمثيلات لائقة

---

(٧٠) ص٢٣٤ .

(٧١) الوساطة ص٤١ .

(٧٢) الموازنة ص٣٨٠ .

بمـا استعيرت لـه ، وغـير منافرة لمعنـاه » ويعيب القاضى الجرجانى استعارات أبى تمـام التى أعابهـا الآمـدى ، ويقـول عنهـا(٧٣) : « اذا سمعته فاسـدد مسامعك ، واستفشى ثيابك ، وايـاك والاصغاء اليـه ، واحـذر الالتفـات نحـوه ، فـانه ممـا يصـدىء القلب ، ويعميـه ، ويطمس البصـيرة ، ويكـد القريحـة » .

* * *

وكلاهما يوجب انسجام الصـورة مع المعنى كمـا هـو واضـح من تعـريف القـاضى الجرجانى « وامتزاج اللفـظ بالمعنى » وتعليق الآمـدى على أبيـات أبى تمـام :

والحـرب تركب رأسها فى مشـهد
عـدل السفيه بـه بألـف حـليم
فى سـاعة لـو أن لقمـانا بهـا
وهـو الحـكيم لكان غـير حـكيم
جثمت طيـور المـوت فى أوكارهـا
فتركت طـير العقـل غـير جثـوم

يقـول(٧٤) : « فالبيتـان الأولان جيدان ، وقـوله « جثمـت طيـور المـوت فى أوكارهـا » بيت ردىء فى المعنى ، لأنـه جعـل طـير المـوت فى أوكارهـا جاثمـة ، أى ساكنة ، لا ينفرهـا شىء ، وطـير العقـل غـير جثـوم ، يعنى أنهـا قـد نفـرت فطارت ، يريـد طـيران عقولهم من شـدة الـروع ، وما كان ينبغى أن يجعل

---

(٧٣) الوسـاطة ص٤١ .
(٧٤) الموازنـة ص٢١٧ - ٢١٨ .

طير الموت جثوما فى أوكارها ، وانما الوجه أن يجعلها جاثمة على رؤوسهم ، أو واقعة عليهم » .

فالآمدى هنا يشير الى أن الصورة فى البيت الأخير « جثمت طيور الموت .. » التى استعيرت فيها الطيور لأسباب الموت ، ودواعيه اصطدمت بالمعنى ، لأن الموقف هنا موقف فزع ورعب ، فالحرب دائرة ، ولا أحد من المتحاربين يضمن بقاءه حيا ، وهذا يقتضى وصف طيور الموت بالتخطف ، والاقتناص ، لا بالجثوم فى الأوكار ، وانما توصف بالجثوم فى أوكارها فى حال الدعة والسلم ، لا فى حال الكر والفر .

والقاضى الجرجانى يذكر بعض وظائف الاستعارة ، وفائدتها للأديب ، يقول(٧٥) : « فأما الاستعارة فهى أحد أعمدة الكلام . وعليها المعول فى التوسع ، والتصرف ، وبها يتوصل الى تزين اللفظ ، وتحسين النظم والنثر » .

* * *

وكلاهما يتخذ مقاييس التشبيهات ، والاستعارات الجيدة مما قاله العرب الأوائل ، وما خالفه منها فهو معاب ، فالآمدى يعلق على قول أبى تمام(٧٦) :

من الهيف لو أن الخلاخل صورت
لها وشحا جالت عليها الخلاخل

---

(٧٥) الوساطة ص٤٢٨ .
(٧٦) الموازنة ص١٣١ وما بعدها .

فيقـول : « ان هـذا الذى وصـفه أبو تمـام ضـد ما نطقت بـه العـرب ، وهـو أقبـح ما وصـف بـه النسـاء ، لأن من شأن الخلاخيل والبرين أن توصـف بأنهـا تعض فى الأعضاء ، والسواعد ، وتضـيق فى الأسوق ، فـاذا جعـل خلاخيلها وشـحا تجـول عليها فقـد أخطـأ الوصف ، لأنـه لا يجـوز أن يكون الخلخال الذى من شـأنه أن يعض بالسـاق وشـاحا جـائلا على جسدها ... ، ... ومن عـادة العـرب أنهـا لا تكـاد تذكـر الهيف ، وطى الكشـح ، ودقـة الخصـر الا اذا ذكـرت معـه من الأعضـاء ما يستحب فيـه الامتلاء والـرى » ويورد أبيـاتا لذى الرمـة ، والشنفرى وتميـم ابن أبى بن مقبـل وغيرهـم يستدل بهـا على صـدق ما قـال . فهـو لا يكتفى بنقـد استعمال الخلاخيل كوشاح ، بـل يضيف أن الوصـف لا يكتمـل الا اذا جمـع الشـاعر الى نحـول الخصـر امتـلاء الأعضـاء التى يستحب فيهـا الـرى والغـلظ .

والقـاضى الجرجانى يعتـذر عن المتنبى ضـد خصـومه الذين انتقـدوا بيتـه(٧٧) :

تخـط فيهـا العوالى ليس تنفذهـا

كـأن كـل سـنان فوقهـا قـلم

لأنـه وصف درع عـدوه بالحصانة ، وأسنه أصحابه بالكلال ، فـيرد الجرجانى بأن وصـف درع العـدو بالحصانة هجـاء لـه ، لأن الرجـل الشجاع هـو من يلقى خصـمه « غـير لابس جنـة »

---

(٧٧) الوسـاطة ص٤٣٤ وما بعدهـا .

كما يقول الأعشى . ويقيس وصف الدرع بوصف الخيل التى يمتدح الشعراء سرعتها ، فيكون ذلك هجوا ان كانت الخيل خيل الأعداء الذين ولوا الأدبار ، ويكون فخرا ان كانت الخيل خيل الشاعر ، وقبيلته عندما يغيرون على أعدائهم ، ثم يقول : « وللعرب فى وصف السلاح والخيل مذهبان ، فاذا وصف شاعرهم خيل قومه ، وأداة رهطه ، وسلاح عشيرته ، وما ادخره هو من عتاد ، واقتناه من رباط ، فانما يريد أننا أهل حروب ومغارات ، ولنا النجدة والمنعة ، وأنا فينا العز والقهر ، ولنا الغلبة والفضل ، واذا وصف بذلك عدوه ، ومحاربه فانما يطلب الغض ، والنعى عليه ، وليس يفعل ذلك الا وقد حاد ذلك العدو عنه فى ملتقى ، أو حاجزه فى معترك ، أو دعاه الى البراز فلم يجبه ، أو أجابه فلم يثبت له ، فهو اذا وصف سلاحه فانما يقول له : انك هربت وأنت مؤد ، شاك السلاح ، تام الآلة ، حديد السيف ، ماضى السنان ، فهو أثلم لعرضك ، وأدل على عجزك ، وأبلغ فى ذمك . واذا وصف فرسه فانما يعتذر من بقائه بعد لقائه . ومن خلاصه بعد تورطه . ويريد أن الفرس نجته وأطلقته ، وانما منت عليه وأنقذته ، فهو طليقها ، وأسير منها ، ورقيقها » .

واتخاذ تقاليد العرب فى التشبيهات والمجازات وغيرها مقياسا لجودة والرداءة واضح فى كل تعليقات الآمدى والقاضى الجرجانى بما فى ذلك الاستعارات البعيدة ، أو القبيحة كما يقول الآمدى ، فهما حينما يوردان شواهد منها يذكران أن الشاعر أغراه

ما رآه فى شعر القدماء ، فاحتذاه ، وسار وراءه . ونسج على منواله ، فمثلا يورد الآمدى بيت أبى تمام :

تحملت ما لو حمل الدهر شطره
لفكر دهرا أى عبأيه به أثقل

ويعلق عليه بقوله(٧٨) : « فجعل للدهر عقلا ، وجعله مفكرا فى أى العبأين أثقل ، وما معنى أبعد من الصواب من هذه الاستعارة ، وكان الأشبه ، والأليق بهذا المعنى لما قال : « تحملت ما لو حمل الدهر شطره » أن يقول لتضعضع . او لانهد ، أو لأمن الناس صروفه ، ونوازله ، ونحو هذا مما يعتمده أهل المعانى فى البلاغة والافراط .

وانما رأى أبو تمام أشياء يسيرة من بعيد الاستعارات متفرقة فى أشعار القدماء ... لا تنتهى فى البعد الى هذه المنزلة فاحتذاها ، وأحب الابداع ، وأغرق فى ايراد أمثالها ، واحتطب ، واستكثر منها ، فمن ذلك قول ذى الرمة :

تيممن يافوخ الدجى فصد عنه
وجوز الفلا صدع السيوف القواطع

فجعل للدجى يافوخا » ثم يورد أبياتا لتأبط شرا ، ومعقل الهذلى ، وغيرهما كشواهد لما قاله من أن أبا تمام رأى تلك الاستعارات البعيدة متفرقة فى أشعار القدماء ، فأراد أن يحذو حذوهم .

---

(٧٨) الموازنة ص٢٤٠ .

والقاضى الجرجانى يعتذر عن استعارات المتنبى التى وسمه الخصوم بأنها لم تجر على شبه قريب أو بعيد بأن المتنبى أغرى بما جاء مثلها فى شعر السابقين ، يقول(٧٩) : « وقد كان بعض أصحابنا يجارينى أبياتا أبعد أبو الطيب فيها الاستعارة ، وخرج عن حد الاستعمال والعادة ، فكان مما عدد منها قوله :

مسرة فى قلوب الطيب مفرقها
وحسرة فى قلوب البيض واليلب

وقوله :

تجمعت فى فؤاده همم
ملء فؤاد الزمان احداها

فقال : جعل للطيب والبيض واليلب قلوبا ، وللزمان فؤادا . وهذه استعارات لم تجر على شبه قريب ولا بعيد ، وانما تصح الاستعارة وتحسن على وجه من المناسبة ، وطرف من الشبه والمقاربة ، فقلت له هذا ابن أحمر يقول :

ولهت عليه كل معصفة
هوجاء ليس للبها زبر

فما الفصل بين من جعل للريح لبا ، ومن جعل للطيب والبيض قلبا . وهذا أبو رميلة يقول :

---

(٧٩) الوساطة ص٤٢٩ وما بعدها .

هـم ساعد الدهـر الذى يتقى بـه
وما خـير كـف لا تنـوء بسـاعد

وهـذا الكميت يقـول :

ولمـا رأيت الدهـر يقـلب ظهـره
على بطنـه فعـل الممعـك بالرمـل

وشـاتم الدهـر العبقى . ويـورد أبيـاتا لـه ثم يقـول : « فهـؤلاء قـد جعـلوا الدهـر شخصـا متكامل الأعضـاء ، تـام الجوارح ، فكيف أنكرت على أبى الطيب أن جعـل لـه فـؤادا » .

فالقـاضى الجرجانى بـرده هـذا كـأنه يقول للخصـوم اذا كـان المتنبى قـد أخطـأ وأبعـد فى هـذه الاستعارات فليس هـو أول المبعدين ، وليس هـو المبتدىء ، فهنـاك من سـبقه ، والمتنبى حـذا حـذوه ، وسـار على ضربه ، فليس هنـك فـرق بين من جعل للريح لبـا ومن جعل للطيب والبيض قلبا ، وبين من جعل للدهر ظهـرا وبطنا ، ومن جعل لـه فـؤادا وقلبا ، فالمتنبى رأى السابقين يستعيرون للدهـر أعضاء الانسان ، ويشخصون الجمادات فأغـراه ذلك ، واستعار كمـا استعاروا .

واتخاذ تقاليد العـرب القدماء فى التشبيهات والمجازات مقياسا لنجـودة ، والزرادة ورد كـل صـورة الى ما قـاله العـرب الأوائل فيـه خطـر على الابداع والابتكار ، لأن ذلك يعنى أن الصور البيانية لا تصـور واقعـا ، بـل تصـور مثـلا عليـا عربية ، وهـذا يلغى شخصية الأديب ، ورؤيته الواقعية لمجتمعـه ، كمـا يلغى أحاسيسه

التى تختلف عن أحاسيس الأوائل ، كما يلغى تصوير التقدم ، والحضارات المتجددة ، والاختراعات المتواصلة .

هذا وأن هناك صورا قالها الأوائل جاءت مرتبطة بعادات ، وتقاليد لا تصلح فى عصرنا ، كقولهم كثير الرماد ، ورفيع العماد ، وهزيل الفصيل ، وغير ذلك . فكيف نجعلها مثلا يحتذى ، وأسوة بها يقتدى ؟

وهذه النظرة الضيقة التى تقوم على التقيد بما ورد عن القدماء جعلت الآمدى يرفض الأخذ بالقياس فى اللغة ، فاللغة بما فيها من مجاز لا يقاس عليها عنده ، فيورد أبيات أبى تمام فى توديع على بن الجهم الذى عزم على السفر(٨٠) :

هى فرقة من صاحب لك ماجد
فغدا اذابة كل دمع جامد

فافزع الى ذخر الشؤون وعذبه
فالدمع يذهب بعض جهد الجاهد

واذا فقدت أخا فلم تفقد له
دمعا ولا صبرا فلست بفاقد

يقول : « قوله : « يذهب بعض جهد الجاهد » أى بعض جهد الحزن الجاهد ، أى الحزن الذى جهدك فهو الجاهد له ، ولو كان استقام له أن يقول : بعض جهد المجهود لكان

---

(٨٠) الموازنة ص٢٠٢ .

أحسن وأليق ، وهذا أغرب وأظرف . وقد جاء أيضا فاعل بمعنى مفعول قالوا « عيشة راضية » بمعنى مرضية و « لمح باصر » وانما هو مبصر فيه ، وأشباه هذا كثيرة معروفة ، ولكن ليس فى كل حال ، وانما ينبغى أن ينتهى فى اللغة الى حيث انتهوا ، ولا يتعدى الى غيره ، فان اللغة لا يقاس عليها » .

وأعتقد أنه لا حاجة الى أن يفترض « الحزن الجاهد » لأن الجاهد هنا الشاعر نفسه ، فهو الذى يجاهد الألم لفراق صديقه الذى أزمع على السفر . وأما أن الجاهد تفيد المجهود أيضا فهو أمر يسيغه القياس على نحو « راضية مرضية » ويجيزه العقل أيضا الذى هو أصل كل قياس ، فالشخص الجاهد لابد أن يكون مجهودا ، أو على الأقل يحتمل أن يكون مجهودا ، فلماذا ينكر الآمدى على الشاعر استعمالا كهذا ؟ لاشك أن رفضه الأخذ بالقياس هو الذى أفسد حكمه هنا .

ومع رفضه الأخذ بالقياس فى اللغة فانه يقرر بأن العرب كانوا يتوسعون فى لغتهم حتى تعدوا ببعض الكلمات التى وضعت لمن يعقل الى مالا يعقل ، ويقول فى بيت أبى تمام(٨١) :

وأبى المنازل انها لشجون
وعلى العجومة انها لتبين

« وهذا قسم شائع على ألسن العرب أن تقول لمن

---

(٨١) ص٤٠٥ ، ٤٠٦ .

يعقل : وأبيك لقد أجملت وكثرت على الألسن حتى تعدوا بها الى مالا يعقل قسما وغير قسم ، وكذلك قالوا : لأمك الهبل ، لأمك الويل ، ثم قالوا مثل ذلك لما لا أم له ، وقال محرز بن المكعبر يرثى بسطام بن قيس :

لأم الأرض ويل ما أجنت
بحيث أضربا لحسن السبيل

فجعل للأرض أما . وقد قال البحترى :

لعمر أبى الأيام ما جار حكمها
على ولا أعطيها ثنى مقودى

فجعل للأيام أبا » .

وتعليق الآمدى هنا ليس فيه اشارة — لا من قريب ولا من بعيد — الى وجود صلة ، ومناسبة بين المنقول منه ، والمنقول اليه ، وهذا يعنى أن النقل والتعدية فى هذه التراكيب ونظائرها جاءت على سبيل التوسع فى اللغة . واذا كان العرب قد توسعوا فى لغتهم بالنقل على سبيل المجاز ، وعلى سبيل التوسع فلا ضير أن نفعل مثلهم ، ونسير على طريقتهم .

فنحن نملك اللغة كما كانوا هم يملكونها .

وبعد :

فهذا ما استطعت أن ألم به ، وأستشفه من الناقدين الكبيرين ، فعلمهما باللغة والشعر وأصوله كبير وخبرتهما بالتراكيب والصياغة

بالغـــة ، واحاطتهما بآراء النقـاد ، والأدبـاء السـابقين تفـوق الوصـف .

وقـد وقفت أكثـر من مـرة أمـام أكثـر من موضوع فى كـلا الكتابين متعجبـا منبهـرا سـائلا نفسى كيف استطاع هذان الناقدان الالمـام بمفـردات اللغـة ، وخصائص تراكيبها ، وطريقـة العـرب الأوائل فى التعبـير والتصوير ؟ وكيف استطاعا أن يلمـا بكل ما قـاله اللغويون ، والـرواة والنقـاد ، والأدباء السابقون ؟ ان هـذا لشىء عجيب ، فالكتابان ثمينـان ، ويحتاجان الى جهـد كبـير ، ووقـت طـويل ، وعنـاية الهيـة لاستخراج الأصول النقـدية ، والبلاغية .

وقـد لاحظت أن أصـول النقـد والبـلاغة عربية فى روحها ، وفى كنهها ، مقاييسهما من القديم ، وميزانهما الجاهليون والاسلاميون . وان كانت جـاءت فى الكتابين — أحيـانا — على طريقـة المتكلمين فى الحـوار والتعليـل ، وقـد رأينـا هـذه الأصول فى تحليلات الآمدى واضحة للبيت :

من الهيف لـو أن الخلاخل صورت
لهـا وشحا جالت عليهـا الخلاخـل

وتحليـلات القـاضى الجرجانى للبيت :

نخط فيهـا العـوالى ليس تنفذهـا
كـأن كـل سـنان فوقهـا قـلم

وأن الذوق أساس النقـد عندهما ، ولكنـه الذوق المدرب الذى ينمـو بالخبـرة والممارسة واستبطان النفس ، وما تجـده من تحريك للمشـاعر .

وأن كلا الناقدين عربى الذوق خالصه ، سليم الفطرة ، سديد النظر ، بصير بأسرار الشعر ، وجمال الصياغة ، بصير بالتراكيب وظلالها .

وأن الناقدين اتفقا فى مقاييس ، وأصول كثيرة فى مقاييس فصاحة الكلمة والكلام ، وفى أن طلب البديع ، وتكلفه يذهب بطلاوة المعنى ويفسده ، وفى أن المعانى المشتركة لا تعد سرقة ، وكذلك الألفاظ ، وفى اشتراط الملائمة بين الألفاظ والمقام الذى يقال فيه التشبيه ، أو من أجله ، وفى أصول الاستعارة ، ووجوب انسجام ألفاظها مع المعنى .

وينفرد الآمدى بحديثه عن الصلة بين العلم والشعر ، وعن تصوير الحياة الشعرية ، والتيارات الأدبية ، وأذواق النقاد ، ومناحيهم فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى ، وما قبله .

وأما القاضى الجرجانى فكان أوسع ميدانا ، وأرحب باعا ، وأوسع صدرا ، وأفسح أفقا فى أكثر من موضوع ، فى الاستعارة ، وفى التجنيس ، والمطابقة ، والتشبيه ، فقد انفرد بذكر بعض وظائف الاستعارة ، وأن المعانى المشتركة المبتذلة فى التشبيه تصير مبتدعة مبتكرة اذا أضيف اليها لفظ يستعذب ، أو ترتيب يستحسن ، أو توكيد يوضع موضعه ، أو زيادة يهتدى اليها أديب دون غيره ، وأن التشبيه والتمثيل قد يقع تارة بالصورة والصفة ، وأخرى بالحال وبالطريقة . وأن المشبه به قد يكون شيئا واحدا ، ويختلف وجه الشبه باختلاف غرض القائل . وأن مثل قولنا : الجندى أسد من التشبيه وليس

من الاستعارة • كما انفرد بحديثه عن الافراط فى الصفة — وهو ما عرف بالمبالغة — وبالاستهلاك والتخلص •

فاتجاه القاضى الجرجانى الى البلاغة واضح فى كثير من تحليلاته ، وتعليقاته • ونوه القاضى الجرجانى بأثر البيئة فى الشعر والشعراء ، ويرى أن من شأن البداوة أن تحدث جفوة فى الطباع ، وفى صياغة الأدب ومعانيه ، ومن شأن الحضارة أن تحدث سهولة ورقة ، وغير ذلك من الموضوعات التى تخدم الشعر والنقد •• فرحم الله الآمدى والجرجانى •

[illegible]

[illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]